المحاضرة الرابعة :

المنهج البنيوي :

في مفهوم البنوية و خلفياتها المعرفية و الفكرية :

تأتي كلمة كلمة بنيوية من الأصل اللاتيني Structureو معناها البناء بمفهومه العادي و المألوف و المتداول ، أما اصطلاحا فهي تعني النظام و التركيب و الترتيب و الشكل و الهيكلة ، وقد استخدم هذا المصطلح في علوم مختلفة و لا سيما الكيمياء و علم الاجتماع و علم الاقتصاد و الجيولوجيا و الرياضيات و بخاصة الفلسفة .

تعدّ البنيوية منهجا وصفيا يرى في العمل الأدبي نصا مغلقا على نفسه ، له نظامه الدّاخلي الذي يكسبه وحدته ، و هو نظام لا يكمن في ترتيب عناصر النّص و إنما يكمن في تلك الشبكة من العلاقات التي تنشأ بين كلماته و تنتظم بنيته ، و من هنا ركزت البنيوية حلّ اهتمامها على بنية العمل الأدبي ، تلك البنية التي تكشف عن نظامه من خلال تحليله تحليلا داخليا ، مؤكدة أهمية العلاقات الدّاخلية و النسق الكامن في كل معرفة علمية .

الخلفيات المعرفية للبنيوية : (يقصد بالخلفيات المعرفية المناخ المعرفي و الفكري الذي سبق نظرية ما و الذي يعزى إليه فضل المساهمة في تهيئة الأجواء لميلاد هذا المشروع / النظرية .

تعد الشكلانية الروسية من المؤثرات التي تركت بصمات واضحة في الفكر البنيوي في مرحلة نضجه برغم تباين الآراء حول هذا التأثير الذي ينفيه بعض مؤرخي النّقد و يؤكدّه البعض الآخر . إذ يقول " كلود ليفي شتراوس " في هذا السياق : " إنني أؤكد على أن البنيوية الحديثة ومن ضمنها اللسانيات البنيوية ما هي إلا امتدادا للشكلانيين الروس " .

و حسب هذا الرأي تكون البنيوية تتويجا لجهود الحركات النقدية التي سبقتها كالشكلانية الروسية من حيث استمرارها في رفض المقاربات الاجتماعية و النفسية و التاريخية . كما يعتقد

البعض أن مدرسة براغ تمثل حلقة اتصال واضحة بين الشكلانيين الروس و البنيوية .

هذا ، و مع البنيوية لم تعد اللغة مجرّد أداة للتّواصل ، و نقل المفاهيم بل هي غاية في حد ذاتها ، لا تحيل إلا على معجمها الدّاخلي كنظام من العلامات تنتج الدلالة من خلال العلاقة القائمة فيما بينها ، و هي في ذلك متأثرة بالدّراسات اللغوية التي قادها العالم اللغوي " سوسير" في بداية القرن العشرين ، هذا الأخير الذي يعدّ بحق رائد البنيوية المعاصرة ، رغم أنه لم يستعمل بأي معنى من المعاني كلمة " بنية " إذ المفهوم في نظره هو مفهوم " النسق " لما عدّ اللغة نظاما من الإشارات التي تعبر عن الأفكار

و الخطاب النقدي لما لجأ إلى النموذج اللغوي إنما كان يحاول تحقيق علمية النقد الأدبي و التي بدأت مع الشكلية الروسية ، حيث كانت اللغة نقطة انطلاقهم في تأسيس ما سموه بعلم الأدب .

هذا ، و قد تحول كتاب " كلود ليفي شتراوس " المعنون ب " الأنثروبولوجيا البنيوية " و الذي صدر عام 1958 إلى مرجع أساسي للدّراسات البنيوية ، فقد قام بنقل المنهج البنيوي اللغوي إلى مجال الدّراسات الأنثروبولوجية سعيا منه إلى تفسير التحوّلات التي تحدث في الثقافة و في الادراك الفردي للواقع الاجتماعي ، في محاولة ممنهجة للكشف عن معنى الأساطير ...وقد كانت لنقلة ليفي شترواس تأثير كبير على نقاد الأدب ليفعلوا الشيء نفسه و يقدموا مشروعا بنيويا متكاملا يلفت الانتباه إلى نفسه ، و يفرض نفسه على الساحة الأدبية النقدية ، و من هؤلاء النقاد " رولان بارت " الذي يعود إليه الفضل في ظهور النموذج البنيوي ، فقد افتتن " بارت " بأفكار ليفي شتراوس و اندفع إلى المناظرات البنيوية من حوله ، و انغمس فيها إلا أن تجاوز البنيوية في النهاية إلى ما بعد البنيوية .

لقد سعى " بارت " إلى تجريد الأدب و الفن من النزعة الإنسانية – الرؤى الرومنسية – التي تعد الأدب و الفن تعبيرا عن الذات ، و تضخم شخصية المؤلف بوصفه مبدعا للنص على حساب بقية عناصر النص الخارجية و الداخلية ، و هنا جاءت المقولة "

البارتية " المشهورة " موت المؤلف " إذ قطعت صلة المؤلف بالنص الذي خلقه على أكثر من مستوى ، فهو يرى أنه حالما تبدأ الكتابة " يأخذ المؤلف في الموت " و على حد تعبيره " الكتابة قضاء على كل صوت ، و على كل أصل " .

و يستثمر " بارت " من جانب آخر فكرة التناص لإلغاء " دور المؤلف " إذ يرى أن النص يتألف من كتابات متعددة تنحدر من ثقافات عديدة تدخل في حوار مع بعضها البعض و تتحاكى و تتعارض ، و اعتمادا على مفهوم التناص هذا يحول بارت دور المؤلف إلى مجرد ناسخ و مقلد ليس إلا .

إن الإعلان عن " موت المؤلف " من قبل بارت يعني أن لا قدرة للإنسان على التأثير في التاريخ و الواقع الاجتماعي ، و بهذا جرده من أي حرية أو قدرة على ممارسة الإرادة الإنسانية ، و جعله خاضعا للغة سجينا بداخلها ، لايملك إلا أن يستجيب لأنساقها الدّاخلية الثابتة ، فوجد الانسان نفسه في سجن اللغة بعدما فرّ من سجن القوى الاقتصاديّة و الماركسية و .... و المتأمل لفلسفة ديكارت و كانط العقلية التي تدعو إلى اكتشاف الحقيقة انطلاقا من العقل و بعيدا عن التجربة و الملاحظة يجد أن البنيوية نمت في أحضان هذه الفلسفة – الفلسفة العقلية – صحيح يبدو ظاهرا أنها معارضة لها و لكن تركيزها على فكرة الداخل / النسق يجعلها (البنيوية) كانطية دون ذات متعالية .

لكن مرور الزمن تعرّضت البنيوية هي الأخرى للنقد نتيجة مبالغتها المفرطة في إعطاء السلطة المطلقة للنص في إنتاج الدلالة و استبعادها دور الذّات القارئة في تشييد الدّلالة و تحولها إلى مقاربة تقنية لا تعير اهتماما للقضايا المعرفية و الثقافية التي يحفل بها النص ، و بهذا فشلت البنيوية في تحقيق حلمها في " السيطرة على المقولات اللامتناهية للإنسان " حسب قول رولان بات . و بهذا تكون البنوية قد وصلت إلى طريق مسدود ممّا جعلها تتوارى فاسحة المجال لظهور ما عرف بما بعد البنيوية (السيميولوجيا ، نظرية التلقي ، التفكيك) .